

إدارة العقل

العقل هو المنظومة الوحيدة القابلة للتنوير - فى الكيان البشرى - وهو معقل الإرادة ومركز الإدارة ، ومنبع الفكر الذى يقود تطور البيئة المحيطة ويوجه نشاط الخلافة عن الله فى الأرض ، وهو وسيلة التوافق والتعامل مع حركة وتطور نوعية وظروف الحياة ، وذلك يستلزم حسن الفهم والإدراك. ولا يتيسر ذلك بدون العلم والمعلومات والثقافة النظيفة. و بناء على ذلك تصبح القضية هنا هى إدارة وترقية مركز الإدارة ومنبع النور. وهذا أصعب الصعب ، ولا يمكن صلاح وضبط النظام بدون صلاح إدارته ، ويمكن القول بأن أولى الأشياء بحسن الإدارة والتطوير والاستثمار هو العقل. والإدارة أساسها المجهود الذهنى ولذلك فهى من نصيب (واجب) العقل.

وقد جرى العرف على تسمية توجيه وضبط الحركات المادية "تشغيل" ، فنقول تشغيل الآلات والماكينات والعمال والخامات والبيانات وما شابه ذلك. هذا النوع من التشغيل يحكمه علاقات طبيعية كالقوة والسرعة والكتلة ... ومعاملات جامدة محددة. كما جرت العادة - أيضا - على تسمية توجيه ومراقبة البشر "إدارة" ، وهذا ما نركز عليه هنا ؛ لأن جوهر البشر هو العقل الذى أهمل كثيرا فتراكم فيه ما تراكم. إننا نُخلق وعقلنا معنا بجالته القابلة

للتنمية إلى ما شاء الله. وتلك مسئولية إدارية في الأساس ؛ لأننا لا نملك تبديل
المخ ولا الحواس ، فقط نملك صلاحيات إدارتها وصيانتها.

إننا نقوم كثيرا بمجرد متعلقاتنا المادية كالملكتب والمستودع والحقيبة والدولاب
والخزينة ، فكم مرة بمجرد محتويات العقل لنستفيد بما فيه من علم وحقائق كامنّة
وننميها ، ونطرد ما به من أوهام ونفايات ضارة وأحيانا بالغة الضرر!

جرب يا أخى أن تراجع محتويات عقلك وتنظم أوضاعها بين الحين والحين ؛
لتقويم الأوضاع غير المرئية. ستجد معارف ومعلومات منسية أو مطمورة
وستجد معلومات عفى عليها الزمن أو إنتهى الغرض منها أو أدت مهمتها ،
وهناك معارف يجب التخلص منها لإفساح المجال لغيرها.

سيطرة العقل

ربما كان العقل هو أعلى نعمة فى الوجود ، بل هو النعمة التى ندرك بها ذواتنا
وباقى النعم ؛ فبدون نعمة العقل يضمحل - فى وعينا - معنى بقية النعم.
والعقل هو وحدة إحكام السيطرة الرئيسية على بقية مكونات الكيان البشرى ،
وضعف أداء العقل أو قوته لا بد أن ينعكس على أداء الإنسان وبوضوح ، لمن
يتأمل. التصرفات التى تبدو من جوارح الإنسان تدل على حالة ونوعية
ومستوى عقله ؛ فلا تبطش اليد ولا يتوجه البصر ولا ينطق اللسان بدون

إشراف عقلى مسئول ، ولا يعفى العقل إلا فى حالات ثلاث وضحتها الحديث الشريف وهى : حال الجنون ، وحال النوم وما على شاكلته كالتنويم والتخدير ، وحال عدم بلوغ سن الرشد ؛ فكلها حالات قصور عقلى تبرر البراءة من المسئولية.

وأداء العقل ذاته رهن بمحتوى ذاكرته ودرجة نشاطه وشحن عواطفه ؛ فبدون ذاكرة يتعذر وجود عقل ، وأحيانا نسمع أن فلانا "ذهب عقله" ، أو "اختل عقله" وفى الغالب يكون المقصود بذلك هو فشل الذاكرة أو اختلالها العضوى ، وفى مثل هذه الحالات يرفع القلم عن الإنسان كما جاء فى الحديث الشريف. وعقل بلا علم كالأرض البور غير الصالحة للزراع ولا حتى إنبات الكلى ، فهو (العقل) يحتاج أيضا إلى تنمية واستصلاح ؛ لكى يكون مثمرا ، ولذلك فسعيننا فى طلب العلم فريضة علينا ، فريضة لا تنفع الله فى شىء لكنها تهدف لترقية عقولنا وصلاح أحوالنا نحن ، ولذلك ففرضها علينا هو عين الرحمة بنا. وقد بين الله لنا طريق السعادة لكننا بسوء إدارة عقولنا نشقى أنفسنا بالجهل. لذلك فواجبنا نحو أنفسنا وعقولنا أن نزودها دوما بالعلم المختار الصحيح الذى يبصرها وينميها ، وهذه المسئولية تمتد لرعايانا الذين هم أمانة فى أعناقنا وترشيد عقولهم مسئوليتنا الإدارية ؛ فعقل الصغير يخضع للتلقين واكتساب الثقافات السليمة وغير السليمة ، وتلك ميزة خطيرة ، فذاكرة حية بلا نشاط فكرى تصبح كمستودع لكل ما هب ودب ، ومسئولية الراعى أن

ينتقى لها الطيب ويدربها على كشف الخبيث واستبعاده ، ومعرفة الطيب واحتضانه.

ولا بأس من محاولة تعريف العقل اللامادى بأنه : منظومة المعلومات والمشاعر والأحاسيس الموجودة فى إطار كيان الإنسان والتي تحكم تصرفاته. وقد يكون من المفيد أن نتصور منظومة العقل كمجال ديناميكى (متجدد متطور) خفى "هالى" البنية شفاف ، لا يدرك بالحواس ، ويتخلل كل الإنسان ومركزه بالمخ ، أما فيضه فيلف كل أجزاء الجسم ومعلق بالروح وأقرب فى طبيعته من نسيجها أو تركيبها. وربما نخطو خطوة أخرى فنتصور معلومات العقل تدور فيما يشبه تقاطعات الأفلاك والمسارات ذات التشكيل المرن ، ولو اضطربت هذه المسارات يختل العقل ، وحين تتصلب هذه الطبيعة البالغة المرونة فإنها تقترب من الطبيعة المادية الثقيلة. هذا مجرد محاولة تصور لا برهان عليها ، ورغم تحديد الأطباء لبعض وظائف وأنشطة بعض الخلايا العصبية بالمخ والشبكة العصبية المتصلة به ، فلا مخلوق يعرف يقينا أين العقل! ولا حدوده! ولا كيف يعمل! كذلك الغموض بالنسبة للروح وأين هى! وما المقصود تحديدا بالنفس؟ لا ندرى ، لكننا نجتهد فى التصور والتصور البديل. فمكونات الإنسان ، نعم ربانية محضة لم نشهد خلقها ، نعرف ما يتيسر من صور مبانيها ونجهل حقيقتها ولا نستغنى عنها ، فتبارك الله أحسن الخالقين.

العقل - بحالته - هو الحاكم الرئيسى للجوارح. والمنسق العام بينها ؛ فالعقل السامى يسمو بتصرفات الجوارح والعقل المتسفل يهينها. العقل هو صاحب الدور الرئيسى فى التخطيط والتنظيم ، وتحديد الهدف وبلورة القضايا وصناعة القرار بشأنها واختيار وسائل التنفيذ وإصدار الأوامر للجوارح بالتنفيذ أو التأجيل أو التعجيل أو الإلغاء ، بناء على مجموعة من التقديرات التى تساهم فيها الحواس بدور الخادم المغذى للعقل ، والظيفيات تقوم بدور الطائع المنفذ. فلا تصفق اليد قبل أن يصفق العقل بطريقته ، ولا يرقص الجسد إلا وقد سبقه العقل ، ولا يسكن الجهاز الحركى ولا الجهاز العصبى قبل أن يسكن العقل ، ولا يخشع أى عضو فى الجسد قبل خشوع العقل ، ولا نعظم شيئاً قبل أن يعظم فى عقولنا ، حقيقة كان أو وهما. إذن على العقل تقع المسئولية.

العقل يُدير ويُدار

الإدارة يحكمها فكر ، والفكر نشاط عقلى. والفكر الراقى معاملات شديدة المرونة وتقبل المراجعة ، ولذلك فإنه يأبى الخضوع للقوانين الجامدة والكبت والرأى الواحد وتقديس غير المقدس ؛ فلا يوجد عقل كالأخر ولا مستوى فكران ، ولا يوجد فكر بشرى نهائى كامل ، لكن يمكن للعقل أن يوازن ويقارن حسب رؤيته للظروف والوقائع والتغيرات ، فالعقل هو المصباح الذى يكشف الظلم ، وهو سند البصيرة ومستودعها.

ومن يتأمل البشر يجد بينهم صاحب الفكر النشط المدرك لما يدور حوله وهذا الصنف قلة ، ويوجد صاحب الفكر الكسول الذى يتسكع أو يستسلم للتيارات تبعث به حتى إذا حدثت مشكلة فيضطر للحركة كرد فعل ، ودائما يكون رد الفعل تابعا - لا متبوعا - وهذا حال لا يسر ؛ لأن الفوضى والارتباك الناتج عن المفاجأة تجعل الثمن المدفوع غاليا. ومشكلة العقل أنه نادرا ما يشعر بالجوع المعرفى - بإستثناء عقول الأطفال - لذلك تجد عقل البالغ فى معظم الحالات يُظهر الاكتفاء أو الرضا بحاله إلا حينما يؤثر مؤثر خارجى يكشف زيف هذا الشبح الموهوم.

أما صاحب الفكر النشط فله رؤية وهدف ، ويستنتج ويتوقع الأحداث ويحللها ويتصور النتائج المتوقعة لمختلف البدائل ، ويفترض أسوأ الاحتمالات ويخطط بعقل لمواجهة المواقف وحسن التعامل معها بنظام تم تخطيطه لكيفية التعامل معها قبل حدوثها ، مما يهيئ الفرصة لتحقيق أعلى الفوائد وتحمل أقل التكاليف ، ولذلك يشعر العاقل دوما بالحاجة للمعرفة والمعلومات الصحيحة والتجديد فيزداد تعطشا ، وتلك حالة مثلى يسعى العقل الواعى نحوها.

فى المجال الإدارى التقليدى يوجد أساليب إدارية متنوعة ، مثل ما يسمى الإدارة بالحوافز والإدارة بالإنتاج وما شابه ذلك ، ومثل هذه الأساليب مبنية أساسا على وجهة نظر مادية تخاطب الشهوات والغرائز ومطامع النفس البشرية قبل العقل ، وفى غياب المعانى السامية، وذلك لا بد أن يفتح بابا واسعا للخلل

الإدارى الخفى الذى تعجز الماديات وحدها عن تقويمه ؛ لأن طبيعة الإنسان ليست مادية فقط بل مادية - معنوية.

العقل مصنع القرار ، وبقدر نظافة المصنع ومدخلاته تكون نظافة ما ينتجه ، فكل وعاء ينضح بما فيه . لقد خلق الله الإنسان بتكوين جسدى معين لا خيار للإنسان فيه ولا فضل ، ولذلك فلا محاسبة للإنسان على تكوينه الجسدى أو الخلقى ؛ لأنه من صنع العليم الحكيم ، ولا ينظر الله إلى الأجسام ، لكن الله أعطى الإنسان فرصة المساهمة فى إدارة وتشكيل وتنمية عقله الذى به تتحدد تصرفاته ويختار نشاطاته ، وعنه تنتج أعماله التى يحاسب عليها ، فالإنسان مسئول عن إدارة عقله الذى يحكم كل كيانه ، فالعقل هو بداية تطوير الإنسان . ومعركتنا مع إبليس وأعدائه هى فى الأساس معركة عقلية ، وإن أحسنا توظيف العقل نصرنا الله على الشيطان وقبيله .

من المعروف حسيا أننا نرى الحيز واسعا فى النور ، ونراه ضيقا ومأوى للهوام فى الظلمة ، وكذلك الحال بالنسبة للعقل فنور العلم يضىء العقل ويوسعه ويفتح ملكاته ويسهل التعامل معه ، فيألف ويؤلف ، بينما ظلام الجهل يجعل العقل ضيقا مغلقا ، وكهفا آمنا للخرافات ، فيشعر الإنسان بأن الدنيا هى الأخرى ضيقة حرجة باهتة المعنى .

الوظائف العقلية

اختص الله الكائنات الحية ذاتية (تلقائية) الحركة - أى ذات النظام الحيوى التى تملك القدرة على الحركة دون تدخل خارجي - بالعقل ، كالإنسان والحيوان والطير ، كل منها له إرادة واختيار ووسائل استشعار وحرية حركة تناسب ظروفه ، وربط هذه الوظائف ببعضها يلزمه عقل. أما النباتات ففيها حياة ولها وسائل استشعار واستجابة تلقائية لبعض المؤثرات فقط ، ولكنها لاتملك اختيارا ولا إرادة ، فلا تدب ولا تطير ، أما الجمادات فتبدو فى حالة موت ظاهرى - والله أعلم.

كثيرا ما يخطئ البشر حينما يهرون بأحد الإنجازات العلمية ، فمع اختراع الحاسب الآلى شاعت تسميته - جهلا - بالعقل الإلكتروني ، ثم ما لبث الناس أن تبينوا أن بينه وبين معانى العقل كما بين السماء والأرض. وحين ظهرت دمية تدور بعض مفاصلها آليا قال المبهورون: هذا هو "الإنسان الآلى" ، وبعد الفواق من حمر الغرور عادوا فصوبوا وقالوا : إنه ذراع آلى. كل من الحاسب والروبوت ، رغم فوائدهما غير المنكرة ، يجب ألا تبهرنا لاهى ولا غيرها من المخترعات ، فنجرى وراء فكر من يتصورون الكهرباء حياة ، و يعدون الحساب الآلى إعجازاً. إنه لمن المستحيل أن تقوم المصنوعات البشرية - كالحاسب وغيره - بعمليات عقلية كالتفكر والتصور والتخيل ؛ لأن هذه العمليات لا يدرك الإنسان حقيقة ماهيتها.

ودور العقل البشرى متعدد الوظائف فهو - على سبيل المثال - يميز الأشياء من حوله بمرونة ، وقيس ببصيرة ، ويحسب بدون أرقام أحيانا ، ويصنف حسب الغرض ، ويقارن بالحس ، ويرتب بخبرته وعواطفه ، وينظم حسب الشعور بالحاجة للتنظيم ، ثم يستنتج ويعتبر بأسلوبه ورموزه وخياله هو ، وبخبرته وخبرة غيره ، بغض النظر عن حقيقة الواقع. وهذه الوظائف مبنية على بعضها ، والخلل فى بعضها يؤثر فى سلامة الفكر. وحينما نُبرمج الحاسب لتنفيذ بعض هذه الوظائف فصاحب الذكاء والذى يفكر هو عقل المبرمج وليس الحاسب ، وما يسمى بالذكاء الصناعى هو فى الحقيقة خداع فى التسمية. ونحاول هنا مناقشة وتحسس بعض هذه الوظائف العقلية.

خلق الله كل شىء لغاية ولتأدية وظيفة أو أكثر ، والنظام (System) العقلى يأتى فى مقدمة نظم الكيان البشرى من حيث كم وكيف وخطورة الوظائف التى يؤديها. فى العقل - بمكوناته وشبكاته وطرفياته - تتكون الرؤية وبه يتحدد الهدف ويتم اختيار وسائل تحقيقه. فإن صلح العقل صحت الرؤية وترقى الهدف وطهرت الوسائل ، وإن فسد العقل فسد كل ما يتعامل به الإنسان. والخلل الموجود فى حياتنا وأحوالنا شديد الارتباط بقصور فى إعداد وتهيئة العقول. ولذلك فالعقل هو أولى المكونات البشرية بالصيانة والرعاية والتنمية وحسن التوظيف.

ولكى نحسن إدارة العقل يلزم تمييز وفهم مجالات العمل التى تناسبه والوظائف التى يمكن أن يؤديها وحدود ومعايير تقويم الأداء. أما مجالات عمل العقل فهى شديدة الاتساع وتشمل كل ما يمكن إدراكه من مخلوقات الله.

وبالنسبة لوظائف العقل فهى عديدة ومتشعبة وليس من السهل تحديدها ، ولكن نذكر منها مايلى ، بدون ترتيب:

الوعى والإدراك والتصور.
التذكر.

تنوير السبل.

التفكر والتدبر.

تقويم ووزن الأمور.

التزود بالجديد وتفصى الحقائق المجاهيل.

التخطيط والتنظيم.

صنع القرار ومتابعة تنفيذه.

التحكم فى الجوارح وحراستها.

تحديد المواقف من أمور الحياة والقضايا المصيرية.

تفسير تناقضات الوقائع.

توظيف العقل

المسئول الأمين فى مصنع أو مؤسسة ما حين يرى أحد أجهزة المصنع الثمينة لا يستفاد به بالقدر الذى يتناسب مع غلوه ثمنه ، يشعر ذلك المسئول العاقل بمدى الخسارة ثم بالضيق وبوجوب التفكير فى كيفية الاستفادة القصوى من هذا الجهاز الثمين ، فهل يوجد جهاز فى الوجود يقارب فى قيمته عقل الإنسان؟! الجواب التلقائى : لا يوجد فى الوجود جهاز يدانى عقل الإنسان. إن القدرات الهائلة للعقل البشرى ما زالت معطلة ولم يستخدم منها إلا القليل ، وتلك خسارة لا يرضى بها العاقل. فإن كان ضعف استخدام العقل خسارة كبيرة فما حجم الخسارة الناتجة عن تعطيل ملايين العقول المغيبة!

إن البطالة التى تعاني منها الشعوب سببها الرئيسى هو بطالة وكسل العقول ، فما ضاقت الدنيا بأهلها ، ولا جفت منابع الرزق ، ولا أغلقت أبواب السعى ، ولكن ظلام العقول هو الذى أخفى عنها منابع الخير وأسباب الرزق.

العقل كنظام يمكن أن يوظف لخدمة الغايات الإنسانية السامية ، ويمكن أن يوظف كخادم مطيع للشهوات والشُرور ، بغض النظر عن مستوى الذكاء. هذا هو الجهاز الثمين وأنت المسئول المؤمن عليه ، وأنت الغائم أو الغارم فى النهاية ، فهل ستكون أمينا وغائما ، أم تكون مهذرا لتلك النعمة العظمى! إنها

نعمة لا تحتل الإهدار ؛ لأن إهدارها يعنى الهلاك - والعياذ بالله - فكيف نحسن توظيف العقل؟

هذا هو السؤال الكبير ، والإجابة عليه مستمرة طول العمر ، أو على الأقل من سن الرشد إلى أن تبلغ الروح الحلقوم وتطوى الصحف . فالطفل - إلى أن يرشد - المسئول عنه أولو أمره ، وبعد ذلك المسئول عنه هو عقله ، أى أن عقل الإنسان البالغ هو ولى أمره الذى يرافقه . العقل هو المسئول عن الجوارح ، فكل الجوارح ستأتى يوم القيامة شاهدة والعقل هو المشهود له أو عليه . فحين يغفل العقل لن يُعفى الإنسان من المسئولية وسوف تتضرر الجوارح وتؤذى ، ومعظم الحوادث والإصابات والنكسات بسببها الرئيسى هو تقصير العقل فى حق الجوارح . فطوال فترات اليقظة نرى العقل مسئولاً عن رعاية الجوارح وحسن توظيفها ، فالعقل هو الراعى والجوارح رعيته ، وقد قال - صلى الله عليه وسلم ، فى الحديث الصحيح عن ابن عمر ، رضى الله عنهما: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته...." ، فالقوامة فى حقيقتها تكليف قبل أن تكون تشريفا .

العقل هو جوهر الإنسان وأجدى قواه ، وهو الذى يوظف الجوارح وينظم نشاطها أثناء اليقظة ، وهو الذى يتخير فى مواعيد الراحة ، وعند النوم يسلم نفسه وجوارحه وتوابعه لخالقه - الحافظ الذى لا تأخذه سنة ولا نوم . ومن الظلم أن يرهق الراعى رعيته ويعرضها للمخاطر بينما هو غارق فى الكسل ،

كيف يفلح من تشتكيه رعيته إلى بارئها ليل نهار ، تعس إن لم يفز بدعائها له .
الراعى الصالح يحمل هموم الرعية ثم هم نفسه ، أما الراعى الطالح فهو هم
الرعية . فى بعض فترات اليقظة يحدث أن تكون بعض الجوارح فى حالة راحة
كالعين المغمضة أو القدم وقت الجلوس والأسنان أثناء الصوم واللسان أثناء
الصمت - هذا على سبيل المثال - أما العقل أثناء اليقظة فمُطالب بجد أدنى من
النشاط الإشرافى على الجوارح فى كل لحظة . ففى كل لحظة العقل مطالب
بتدبير أمور الفترة التالية وتحديد دوره ودور الجوارح فيها ، ومراجعة الموقف
وتعديل المسار والحركات وتقييم المواقف والتوقعات والنتائج . ساعات عمل
المخ تستمر تلقائيا مدى الحياة ؛ لأن المخ يعمل مع كل الجوارح . أما العقل
فنظرا للمجهود المتشعب الذى يبذله حال اليقظة فيكون أحوج مكونات
الإنسان للنوم ، ويبدو أن أثر قلة النوم ينعكس أولا على العقل ثم بعد ذلك
على باقى مكونات الإنسان .

الجوارح لا تملك حريتها فى العمل ؛ لأنها مسخرة ، لكن العقل هو الذى يملك
تلك الحرية . فالعقل يملك حرية التفكير فى الخير أو التفكير فى الشر ، التفكير
الرايح أو التفكير الخاسر ، وهذا التفكير جهد معنوى . الجوارح يظهر عليها
التعب بسرعة ؛ نظرا لطبيعتها "الشبه ميكانيكية" ، لكن العقل ليس كذلك ؛
بسبب طبيعته "الشبه كهربائية" ، فأبرز علامات تعبها تغلب النوم عليه . وعمل
الجوارح لا يوصف بالمتعة ولا بالشقاء ، ولا شعورها يتصف باللذة ولا بالألم
إلا إذا اعتمد العقل ذلك ، بغض النظر عن كون الاعتماد صحيحا أم غير

صحيح ؛ ففي حالة الانتقام اليد تضرب وتتعب وقد تصاب أو تؤذى بينما العقل يدعى الراحة ، ولا تملك اليد الاعتراض! وفي حالة الهجاء يتأذى اللسان لكن العقل يزهو ويزعم البلاغة أو الفصاحة!

وهب الله العقل حرية التفكير، ولكن معظم العقول تسيء توظيف هذه الحرية ؛ لجهلها بأنه في مقابل الحرية توجد مسئولية. تجدد من يفكر في الإحسان ومن يفكر في الإيذاء ، هناك من يبحث عن المساكين ليتصدق عليهم ويساعدهم ، ومن يتصيد المحتاجين ليستغل حاجتهم ويستعبدهم ويمتص دماءهم. ومن الناس من يحرص على أن يجعل كل خطواته وهمساته محسوبة ومحسوبة ، ومنهم من يدب إلى حيث تقوده الغرائز والشهوات. ومن الناس من يفكر في كيفية جلب الابتسامة لشفتي حزين أو الفرحة لقلب يتييم ، ومنهم من يقضى الأيام والليالي يعصر ذهنه ويحرق أعصابه مع لفائف الدخان وغير الدخان وهو يخطط لحركات فيل أو عسكري الشطرنج ، فهل تستوى هذه العقول!؟

نعم الرياضة البدنية مفيدة ومطلوبة ، فالمشى - مثلا - رياضة البسطاء. هؤلاء البسطاء منهم من يمشى للرياضة فقط وهو فخور بفهمه لهدف وفوائد المشى ، ومنهم من يمشى سعيا على الرزق وطلباً للرياضة ، ومنهم من يمشى سعياً على الرزق وللرياضة واحتساب ذلك ابتغاء مرضاة الله ، الكل يمشى لكن لا يستوون ، والمستول هو العقل ؛ لأنه هو الذى يختار الغايات ويصمم الوسائل ويراقب التنفيذ. يوجد من يمشى إلى دور اللهو والعبث والمواخير تحت الأضواء المزينة ،

ومن يمشى فى الظلم إلى المساجد ، هذا موجود وذاك موجود إلى أن تطلع الشمس من مغربها. لكن ترى أيهما أقر عينا وأهدأ أعصابا وأكثر اطمئنانا وأفرح قلبا وأرجى خاتمة - فى الدنيا، فضلا عن الآخرة - من يعدو خلف الشيطان ، أم من تحمله أجنحة الفرح ونسائم الجنان! كيف تعقل يا أيها الإنسان!!

مصادر محتويات العقل

من المسلم به أن المعلومات التى تشكل نوعية العقل لم تنشأ من العدم ، ولم تقذف فى المخ دفعة واحدة. فالمعرفة لا تنشأ ذاتيا بالاعتماد على الذهن وحده ، إنما هى نتاج النشاط الإنسانى فى الحياة ، وهذا النشاط قادر على تغذية نفسه بنفسه ، دون الاستغناء عن التغذية الخارجية. ويمكن تصور أن يبدأ العقل بمعلومات فطرية أساسية كمنحة إلهية أشبه بالإلهام أو الإيحاءات التى يصعب تحليلها وقد يجوز أن نطلق عليها المعلومات الثابتة ولا سيطرة للإنسان عليها ولا يحاسب على محتواها ، وهى من نوعية المعلومات المرتبطة بنظم السمع والإحساس المادى والحركى وما شابه ذلك ، وذلك نوع من ضمان الحد الأدنى اللازم للحياة كالماء والهواء. ومن الأجدى - هنا - أن نتجاوز هذه النوعية من المعلومات ونتقل إلى ما بعد ولادة الطفل. وعندئذ يمكن أن نفترض أن المولود يبدأ ببطء فى استشعار ماحوله عن طريق الحواس الخارجية المعروفة وهى :

الأذنان والعينان واللسان والأنف وحواس الجلد ، وقد يضاف إليها الحواس
الداخلية المعروفة منها وغير المعروفة.

يمكن تصور إمكانية ترجمة نتائج ما تلتقطه تلك المستشعرات (الحواس) إلى
معارف مكتسبة تتابع لتنمى شق المعلومات المتغيرة فطريا ، وعلى أساس هذه
المعارف يصدر العقل أوامره للجوارح . وصل اللهم على الهادى البشير إذ يقول
فى الحديث الصحيح المتفق عليه عن أبى هريرة ، رضى الله عنه: " ما من
مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه". فالاجتمع
المحيط - وخصوصا الأسرة - يساهم بالنصيب الأكبر فى تشكيل عقل وفكر
وعواطف ومعتقدات الإنسان فى طفولته وصباه ، وفى إكسابه العديد من
الصفات المعنوية ، وهذا الشق المرن (المتغير) هو فرصتنا فى ترقية عقولنا أولا ،
ثم تطوير عقول رعايانا بعد أن نصبح أهلا لذلك.

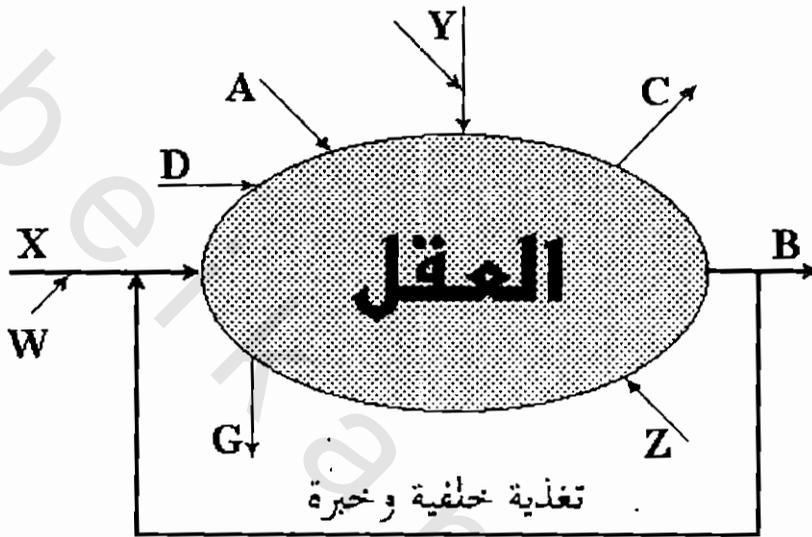
بعد الولادة تبدأ صياغة الشق المتغير من العقل باستقبال المعلومات عن طريق
الحواس ، ويتم ذلك بالتدريب والتلقين والحفظ ، وقليل من الناس من يتجه
للتأمل والتفكير والتجارب والاستدلال والاستنتاج ... إلخ ، لتنمية أو تدعيم
المعارف ذاتيا ؛ لأن ذلك يحتاج لجهد متواصل ومنظم. وهذه القلة تضحل
نسبتها عاما بعد عام بسبب ضغط مشاكل الحياة واللهث وراء الكماليات
وشيوع قيم الرفاهية المادية ؛ مما لا يدع فرصة للبحث عن الضروريات الفكرية
وليس كمالياتها. يضاف إلى ذلك ضغط وسائل تشكيل العقول ، فهذه

الوسائل بطغيانها تخضع العقول وتحولها إلى مجرد مستقبل محروم من فرصة التفكير ؛ لأن العقل بعد خضوعه أصبح يشعر بأنه لا وقت لديه للتفكير ولا جدوى من ورائه ، ففي إخضاع العقل واحتلاله سلب معنوى للإرادة وقتل لمعنى الحرية.

ومن الصعب تصور نشاط عقلى ملموس لمن يولد أعمى - أصم ، فكل ما يتصور لمثل هذه الحالة هو وجود تصرفات فطرية غريزية ورجوعات عكسية. أما فى حالة من يسمع ويصير فهو يستقبل المعلومات ويشغلها ويتصرف فيها وعلى أساسها. فالإنسان يستشعر وجوده بعقله ويتكون إدراكه بما يدور حوله من خلال حواسه ، فهى التى تربطه بما يحيط بذاته. فرؤية الإنسان ومفاهيمه تتشكل فى عقله كترجمة لما يراه ويسمعه ويحسه من رسائل يلتقطها من خارجه ، وكمحصلة لذلك يتبلور فكر الإنسان وآراؤه ومعتقداته وتوجهاته وميوله وانطباعاته ، ويمكن بها تفسير الكثير من تصرفاته.

وفى محاولة النمذجة يمكن تمثيل عمليات النشاط "المعلوماتى" للعقل كما فى شكل (1) ، الذى يمثل العقل كوعاء تدخل إليه الرسائل والمعارف والمعلومات فتتفاعل معه ، وأيضا تخرج منه صور للمعلومات (وليست المعلومات ذاتها) ، إما مرسلة أو مطرودة (مرفوضة). وجدير بالذكر أن العقل ليس مجرد وعاء يملأ ويفرغ حسب الطلب لكنه فى الأساس نظام انتقائى إنتاجى تفاعلى. والعديد من المؤثرات المحيطة يمكن أن تُحدث فينا (فى عقولنا) تفاعلات داخلية عن طريق المخ ويظهر أثرها على جوارحنا ، فمجرد غيم السماء ونشاط الرياح

يجعلنا تلقائياً نتحسس ملابسنا للتأكد من كفايتها لمقاومة البرودة التي بدت مقدماتها.



شكل (1) . نموذج تخطيطي لتبادل المعلومات بين العقل والمحيط.

ومن الخبرة وتجارب الإنسان مع أمور الحياة فإنه يستخلص ويستنتج ويتعلم ذاتياً ويعدل سلوكه مستقبلاً بناء على ما تعلم ، ويمثل ذلك بالتغذية الخلفية ، كما في شكل (1).

والحواس مداخل طبيعية للعقل ، وأبرزها السمع والبصر ، وهي غير متساوية التأثير على العقل ، بمعنى أن نسبة المعلومات الداخلة - كما وكيفا - عن طريق

البصر الحاد (X_1) إلى المعلومات الداخلة عن طريق السمع العادى (Y_1) لأحد الأشخاص ، هذه النسبة من المتوقع أن تكون أعلى من نسبة المعلومات الداخلة عن طريق البصر العادى (X_2) إلى المعلومات الداخلة عن طريق السمع العادى (Y_2) لشخص آخر ، ونعبر عن ذلك رياضيا كالتالى:

$$(X_1 / Y_1) > (X_2 / Y_2)$$

وقد يجوز وصف أو تمييز مصادر معلومات العقل الأول على أنها ذات تركيز بصرى ، فى حين يصعب إطلاق هذه الصفة على العقل الثانى ، ويمكن أن يوصف الأعمى بأنه سمعى التركيز ، وهكذا مع باقى الحواس . هذا ويلاحظ أن تطور وسائل الاتصال يؤثر على هذه النسب ، بمعنى أن الراديو والكاسيت ومكبرات الصوت والصوتيات عموما كانت جميعها فى جانب التركيز السمعى ، بينما المرئيات جاءت فنشطت التركيز البصرى وهكذا.

صاحب التركيز البصرى يكون أكثر استجابة للمرئيات ويكون التأثير عليه واستدراجه من هذه الناحية أيسر ، وصاحب التركيز البصرى حين يحاول التعبير يفضل التعبير بالصور إن تيسر له ذلك ، كما يحاول الأخرس تعويض قصور لسانه بجر كات يديه . أما صاحب التركيز السمعى فمن الطبيعى أن يشعر بسهولة الالتقاط السمعى والتوصيل للعقل .

وبهذه المناسبة ، فيلاحظ بسهولة أن السمع يعمل بنظام "شبه توالى" ويتعذر عليه التوازي ، أى يصعب عليه سماع صوتين (أو أكثر) فى نفس اللحظة ، ولا بد أن يختار بينهما ، وسهولة تمييز الأصوات ناتجة عن بطء سرعة الصوت. بينما فى حالة البصر فيحسب الإنسان أنه يمكنه مشاهدة العديد من الأهداف فى نفس اللحظة ، أى يتوفر له العمل بنظام التوازي وهذا التصور غير صحيح ، والالتباس ناتج عن التتابع السريع لسقوط الأهداف المرئية على الشبكية ؛ بسبب السرعة الفائقة للضوء ، مما يجعل الأهداف المتوالية (أو جزئياتها) تتراكم لدى العقل وكأنها وصلت معا. وربما يكون البصر متفوقا على جميع الحواس من هذه الناحية. ومن المعجز أن العقل يستطيع أن يستقبل من كل الحواس ويميز فى خلال فترة زمنية قصيرة جدا ، سبحان الذى خلق فأبدع.

وتركيز الاستقبال فى جانب معين من الحواس يعد نوعا من التحيز أو الميل المعلوماتى الخفى ، وقد يؤثر ذلك على حياد العقل وسلامة الرؤية ما لم يتنبه الإنسان لذلك ويحاول الموازنة أو التعويض. وقد ذكرنا أمثلة لتحيزات حسية ناتجة عن عدم توازن وسائل التقاط المعلومات ، وفقد الكثير من المعلومات بسبب سرعة تتابعها ، ويوجد ما هو أخطر من ذلك - على حياد العقل - وهو تحيز المعلومات ذاتها حين تكون معلومات الإنسان عن شىء أكثر من معلوماته عن شىء مناظر ، ويتمثل ذلك بوضوح فى التحيز اللاشعورى للذات وللمهنة والحرفة والجنس والتحيز القبلى والعائدى. والنتيجة تكون خطأ تحصيليا فى إدراك حقائق الأشياء ؛ لأن عدم توازن المعلومات يظهر الأشياء - فى تصورنا

- على غير حقيقتها ، فيرى العقل أشباه الحقائق أو أشباه الأوهام وعلى أساسها يفكر ، فيكون الفكر غير سليم.

هذا فى حدود الحواس الطبيعية والقدرات العقلية ، وعندما تنتهى حدود قدرات الحواس والإدراك العقلى بدون الإجابة على أسئلة عقلية جوهرية مثل: من نحن؟ لماذا خلقنا؟ وماذا بعد الموت؟ عندئذ يبدأ الإنسان فى تلمس المعرفة والعلم من الوحي الإلهى ، أى مما بلغنا عن طريق الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ليكمل المعلومات الضرورية لتوازن عقله وسلامة حياته ومصيره ، التى عجزت قدرات العقل وحده عن الوصول إليها. فليس فى قدرة العقل استنتاج حقيقة الخلود فى الآخرة ولا كيفية الحساب ، ولذلك فهو فى أشد الحاجة لما جاء به الوحي. فالعلاقة بين العقل والنقل علاقة تكاملية لصالح العقل وليست علاقة تضاد. وقطع هذه العلاقة هو أشد الخسران للعقل ، لأن بديلها غير موجود.

وجدير بالذكر أن النقل واقع أصلا على المستوى البشرى ، فثقافة المهندس الطبية منقولة من الأطباء ، والثقافة الهندسية للطبيب مأخوذة من المهندس بثقة وبدون تجريب أو طلب برهان. وذلك لا يتعارض مع العقل بل هو عين العقل، ونسمى هذا النوع من النقل "بالنقل العقلى" ، أما حين تطلب الثقافة الطبية من النجار أو الحداد أو عن طريق كذاب فهنا يكون النقل الخاطيء.

بالعقل يمكن الوصول للمريخ - مثلا - لكن لا يمكن معرفة من أوجد المريخ! ولماذا وُجد؟ بالعقل ندرك أشعة الشمس ونجرب عليها القياسات والتجارب ، لكن لا يمكن أن ندرك (بالعقل) سبب وجود الشمس أصلا! فلا مفر من استكمال معلوماتنا عن الكون والحياة وما وراء الحياة بطريق "النقل العقلي" ، أى من مصادر ثقات. بدون هذا الاستكمال يصبح علمنا ، وبالتالي العقل ، دنيويا ماديا (علمانيا!) ، أى متحيزا (مائلا) بشدة ناحية الدنيا والمبني ، على حساب الآخرة والمعنى ، وهيهات أن يستقيم العقل المائل بدون إحداث التوازن المطلوب.

تشويه (تلوث) العقول

يمكن اعتبار العقل سليما إذا كان المخ صحيحا من الناحية العضوية وتدفت إليه الحقائق - لا الأباطيل - بحرية وحسب الطاقة وبعد التهيئة للقبول والاستيعاب. والسلامة العضوية ليست قضيتنا وهى والحمد لله موفورة - فى الغالب - ولكن القضية هى كيفية وكمية تدفق المعلومات للمخ ليتشكل العقل وينمو وينشط ، وهنا تنشأ السلامة الفكرية. ولا خلاف على أنه توجد معلومات صحيحة وتوجد معلومات خاطئة ، والأخيرة هى - فى تصورنا - سبب تلوث العقل وتشويهه. وبقدر ما يحتوى العقل من معلومات خاطئة ومسممة بقدر ما تكون درجة تلوثه وتشوّهاته ومرضه وتدهور حالته. وهذا الصنف من العقول يمثل مشكلة اجتماعية بالغة الخطورة ، ويلزم تجهيز برامج قوية لتنقية هذه العقول

مما بها من شوائب ؛ لتعود إلى رشدها وينجو المجتمع من شرورها وتعويقها له. وجدير بالذكر أن النفاق والجمود والانغلاق والتعصب والتطرف والتفريط والاستكبار ، ومعظم الرذائل ، إن لم تكن كلها ، هي مجرد أعراض طافحة لأمراض وتشوهات عقلية ولا تزول إلا بمعالجة العقل.

العقول المشوهة هي مصدر الفساد والإجرام والشرور ، ومثل هذه النوعية من العقول يندر أن تملك القدرة على اكتشاف أمراضها وعلاج نفسها. وحين يمرض العقل أو يجمد نشاطه أو يتم تحجيم نموه ورفقيه فذلك يتيح الفرصة للشهوات أن تتمدد وتكون لها السيطرة على السلوك وهذا نوع من التعويق العقلي. والأسوأ من ذلك هو حشو العقل بمعلومات خاطئة وأفكار فاسدة فيصبح الشخص أكثر استعدادا بل مندفعاً نحو الفساد ، وهذا هو مرض العقل (أو القلب). والجرمون هم في الحقيقة أصحاب أمراض عقلية (معنوية) وهم آفات يعاني منها المجتمع وهم أدنى الفئات تطهيراً لعقولهم. والتصنيف العقلي لأفراد المجتمع يجعل العلماء على القمة بينما يضع المجرمين في أسفل سافلين ، وبين ذلك يوجد تنوعات شتى.

المعلومة الواحدة يندر أن تبقى منفصلة في العقل ، وإلا تبخرت. ففي العادة ترتبط المعلومة بمعلومات قريبة منها فتكون وحدة معرفة ، وهذه الوحدة قابلة للنمو ما دامت تتلقى التغذية المتلائمة معها ، فتتفرع وتكون ما يشبه الثوابت العقلية ، حتى ولو كانت مكونة من معلومات وهمية. وكمثال لذلك ،

نفرض أن جهة ما استقبلت مجموعة من الأطفال الأبرياء وبدأت تحكى لهم
حكايات متنوعة عن "الغول" على فترات زمنية متقاربة دون أن تتدخل جهة
أخرى لمقاومة هذا الجهد. بمرور الوقت سوف يتكون لدى الأطفال تصور عن
الغول بناء على الحكايات التي سمعوها ويمكنهم أن يعبروا عن ذلك بالرسم مثلا
أو بالشعر. وتستطيع نفس الجهة الموجهة أن تعد كهفا جبليا على أحد
الشواطئ غير المأهولة ، ثم تأخذ الأطفال في زيارات محروسة ومؤمنة لمشاهدة
"بيت الغول" هذا المخلوق الذي يختفى في البحر نهارا ويأوى إلى الكهف ليلا.
وفي أثناء القصص يمكن إصاق الكثير من الشرور لذلك الغول ، ويمكن رسم
لوحات جميلة ملونة لشباب أبطال يصارعون الغول تعلق في أماكن مختلفة تذكر
الناس بالغول وشروره ووجوب محاربتة ورصد تحركاته بأحدث الوسائل
التكنولوجية ، ويمكن جمع التبرعات في سبيل تحقيق هذا الهدف النبيل وتشيد
نصب تذكاري لمن ضحوا بحياتهم أثناء مصارعة الغول - الوهم!! وتقبل مثل
هذه الحكاية يدل على تقبل الفطرة البشرية للإيمان بالغيب ، ولكن هذه الفطرة
استخدمت كثيرا في التضليل والتسليم بالخرافات.

مثل هذه الحكاية قد لا تروق لبعض القراء أو لا تقنعهم بما فيه الكفاية ؛ نظرا
لمعرفتهم السابقة بأن الغول خرافة ، إذا فدعنا نعرض نماذج واقعية يسلم بها
معظم العامة وينفخ فيها معظم المغرضين والمزورين. دعنا نتأمل من يسمون
نجوما ، ووسائل الإعلام تصبحنا وتمسينا بصورهم وإنجازاتهم وأسعارهم
وأخبارهم وموديلات ملابسهم والأطعمة التي يفضلونها وأذواقهم وتطورات

أمزجتهم وسحر ابتساماتهم.... إلى آخر هذه الموضوعات القيمة!! أليس هذا النفخ والتلميع تضليلا لعقول الأبرياء!

فليفكر العاقل في حقيقة "النجم X" ، فيجد أن عطاءه للمجتمع ينحصر في أنه يقذف كرة جوفاء متربة أو غير متربة بجذائه الذهبى! وقد تطيش الكرة (أو الحذاء) فتصنع وجوه المتفرجين المغييين - فكريا - وهم يصفقون ويهتفون بحياة "النجم" ، وقد تنشب المعارك - حتى بين ذوى الأرحام - ويسقط الضحايا أو الجرحى من أجل ماذا! أو فى سبيل أى هدف نبيل!!

عجيب وغريب أن يسمى ركل كرة جوفاء فى شبكة خرقاء يسمى فوزا. بمس الفوز وخاب الفائز والمخدوع. ولنتأمل سخرية أشهر لاعب كرة فى العالم فى زمانه إذ يقول: "كنت فى صباى أعمل ماسح أحذية فكانت عينى تلمس أرجل الناس بحثا عن حذاء متسخ لأمسحه ، وبعد أن أصبحت لاعب كرة شهير صارت عيون العالم على حذائى!!"

لقد طغى الحذاء على العقل ، فهل سمعت يوما أن مائة ألف إنسان ذهبوا بحماس دفعة واحدة للاستمتاع بفكر أحد المفكرين؟ الجواب: قطعاً لا. ولكن ذلك يحدث وتتعلق العيون لساعات تغذى العقول بفوائد الركل بالأحذية!! يا أصحاب الألباب هل سنسمع فى يوم ما عن مسابقات فى كمال وجمال العقول كما توجد مسابقات لجمال وكمال الأجسام!؟

من الطبيعي أن نجد من بين القراء من يتشجع مدافعا عن الكرة (وغيرها) وكأننا نهاجمها أو نهاجم الرياضة في حد ذاتها ، فتلك عقليات تشكلت فيها ثوابت - هي ثوابت - حتى ولو كانت زائفة ستجد من يدافع عنها بحماس وبصدق ، وأحيانا لمنفعة عاجلة. ولنتقل إلى أصناف أخرى من "النجوم" فتجد الراقصين والراقصات والمطربين والمطربات والمنافقين والمنافقات ... إلى آخر السلسلة الذهبية المترفة. ونعذر من لا يعجبه رؤيتنا لنجوم "المجتمع الاصطناعي" ، ونطرح سؤالاً للعقل: هل الجسم المعتم إذا طُلّي بالألوان وسلطت عليه الأضواء الاصطناعية المشبوهة يصير نجماً؟ أم أن النجم يكون مضيئاً بذاته، من داخله!

حتى بلغة الماديين وعباد الدنيا ، كيم تتكلف المباراة ، أو حفل أهل اللهو والمجون؟ ماذا يستفيد الاقتصاد الوطنى من وراء ذلك؟ وماذا يستفيد المتفرج الذى كلف نفسه مشقة الحضور وثمان التذكرة وغيليان الدم فى عروقه وحررق أعصابه والشجار مع إخوانه وضياع وقته؟ هل مارس الرياضة، أو رفه فعلا عن نفسه ، أو كسب شيئا ملموسا؟ أين دور العقل فى مثل هذه المسائل؟ أم أنه مغيب بفعل فاعل!

لسنا ضد ممارسة الرياضة الهادفة ، ولا ضد الفن النظيف ولكن نطالب بأن يُرد للعقل اعتباره ويتبوأ مكانه الحاكم باحترام وتوقير ، فلا يغيب ولا يشوه بتخطيط المفسدين ولا ينخدع بسهولة ، بل يتيقظ ليقود الجوارح نحو السعادة الحقيقية والفوز المبين. فحين يكون تضييع الوقت - أو قتله - هو الهدف فما

أشبه ذلك - معنويا - بالانتحار المؤقت. فالانتحار المعروف هو إنهاء للعمر بقتل النفس ، وقتل الوقت هو قتل لجزء من العمر دون أن يكسب الإنسان شيئا بل قد يكتسب آثاما. وقد جاء في الحديث الصحيح ، الذى رواه البخارى عن ابن عباس ، رضى الله عنهما: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفرغ " صدق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم.

تشغيل المعلومات بالعقل

بجانب وظيفة العقل كذاكرة (حياة) يحتوى منظومة المعلومات ، فإنه يتصرف فيها أيضا بنوع من التنظيم والترتيب والفك والتركيب والمعالجات التلقائية التى لا نعرف حقيقتها على وجه الدقة ، ولكنها بالقطع موجودة ، بشكل أو بآخر ؛ لأن بدائلها هى العشوائية والفوضى ، وليس ذلك من صفات العقل السليم (الطبيعى). وهنا نعتبر أن المعلومات تتكون من بينها مجموعات (متشابهة) أو توليفات تشكل كل مجموعة منها قضية أو مسألة أو موضوعا أو صورة أو أى شىء مركب. ودعنا نتصور أن نوعية وكمية وتنظيم المعلومات تساهم إلى حد كبير فى تشكيل العقل. ويبدو أن أسلوب هذا التنظيم يختلف من شخص إلى آخر ، على الأقل فى الدقة هذا فضلا عن الاختلاف الناتج عن الحجم أو الكم. فمن البديهي أن الحجم الصغير يسهل تنظيمه وكذلك إعادة تنظيمه ؛ لذلك يسهل التأثير عليه ، أما الكم الكبير فيحتاج لجهد كبير فى إعادة تنظيمه ، ولا نرى سببا واضحا لاستثناء العقل من سريان هذه البديهية عليه ، فالعقل البسيط

أو عقول الأطفال أو العوام يمكن تطويعها بجهد أقل من ذلك اللازم لتطويع العقول الكبيرة.

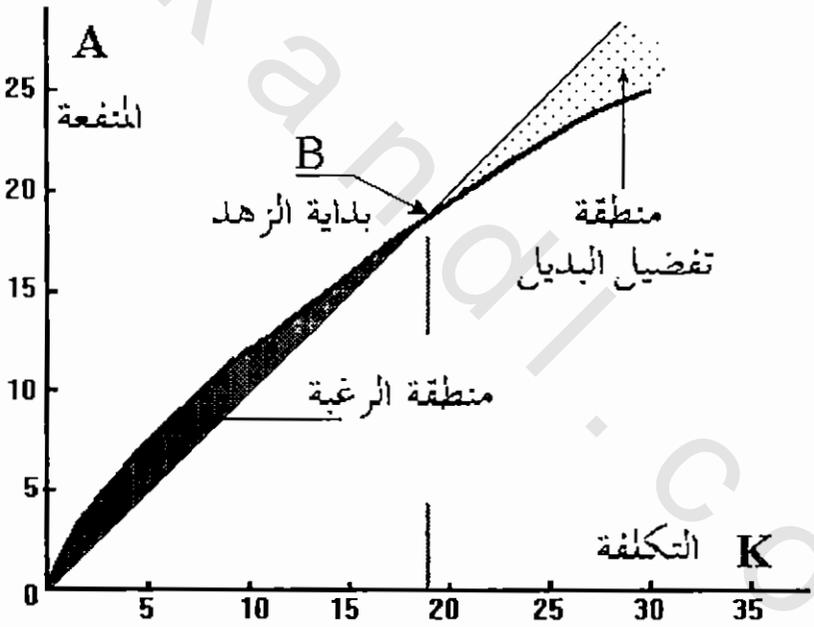
أما من ناحية الترتيب فمن المؤكد أن الترتيب يختلف من شخص إلى آخر أيضا، ويمكن الاستشهاد على ذلك بأمثلة كثيرة ، فقيمة الوردة في نظر شخص قد لا تساوى نصف رغيف وفي نظر شخص آخر قد تساوى عدة أرغفة ، والذهاب للمصيف وما يتعلق به قد لا يخطر على بال الإنسان الفقير أو الذى تكاثرت عليه المشاكل ، بينما قد يكون ذلك سببا في خلافات عميقة فى داخل بعض الأسر المترفة.

والتشغيل يكون عادة تلبية لرغبة أو مطلب أو حاجة أو واجب ؛ أى بتأثير دافع ما. ومن مبادئ الميكانيكا أن الحركة (أو النشاط) تكون فى اتجاه محصلة المؤثرات ، وهذه المحصلة تمنح ناحية اتجاه القوى الكبرى. وبالنسبة للعقل فالقوى ليست ثابتة المقدار ولا الاتجاه ، لذلك فمن المعتاد تغير توجهات العقل وتقلباته. فالاحتياج للتعليم أو الرغبة فيه - مثلا - لا يستقر على حال ، أيضا نوعية المسكن الذى يرغبه الإنسان متغيرة ، وهكذا النوم والحب والوفاء ومعظم الأشياء والعواطف.

على أى حال هب أن الشخص تلح عليه عاطفته (أو رغبته). بمطلب معين ، عندئذ يبدأ عقله فى التفكير فى كيفية تحقيق النسبة التى تيسر من هذا المطلب

فى حدود القيمة (التكلفة) التى يستعد الإنسان لتقديمها فى سبيل أن تتحقق رغبته. لنضرب مثالا رقميا لذلك بغرض التوضيح ليس إلا. هب أن الشخص يريد شيئا اسمه A ، ولتحقيق النسب المذكورة من هذا الشيء يلزم تقديم ما قيمته K ، جهدا أو مالا أو وقتا أو تحملا أو غيره وفق الجدول الموضح.

A	0	5	10	15	20	25
K	0	3	8	14	21	30



شكل (2). علاقة المنفعة بالتكلفة.

يفرض أن قيم الجدول مستقرة لفترة التفكير والسعى فسوف يتحرك الإنسان تلقائيا وعفويا ليقدم المقابل حتى قرب المستوى $K=18$ أو يزيد قليلا ، وبعد ذلك سيشعر أن المزيد من الإقدام (التكلفة) ليس له ما يعادله من المطلب A ، أنظر شكل (2). ولكن الواقع أن قيم الجدول ليست مستقرة ؛ فمع الحصول على مقادير من A تبدأ قيمتها في التغير بالنسبة لقيم K المبدولة ؛ لأن القيمة بعد تذوقها تختلف بالتأكيد عن القيمة أثناء تصورها ، فإما أن يشعر بحلاوة ويزداد تعطشا لها فتتقدم النقطة B على شكل (2) ، وإما أن يشعر أنها ليست بالحلاوة التي كان يتصورها فتقل قيمتها في نظره مما يعجل بالاكفاء بقدر أقل مما كان يطلب ، فتراجع النقطة B .

وكمثال آخر نجد التعليم كمطلب للإنسان فمن الناس من يكتفى بتعلم القراءة والكتابة ، ومنهم من يكتفى بالتعليم المتوسط وفريق آخر يطلب التعليم العالي ، وهناك من يظل يلهث للحصول على أعلى الشهادات والمسميات ويرى أنها تستحق أن يدفع تكاليفها. في كل هذه السلسلة لا يشترط أن يكون جوهر العلم هو المطلب ، ولكن المطلب الغالب هو تلبية رغبات نفسية وحاجات اجتماعية ، وتطلعات لتحقيق مكاسب مادية بهذه الشهادات مستقبلا.

وعود للتعقيب على المثال الأسبق ، فقد فرضنا أن كل تركيز العقل في المطلب A ، ولكن الواقع غير ذلك فالمطالب عديدة ومتنوعة (B, C, D, \dots) وتتنازع المطالب في نصيبها من K ، فيضطر العقل للموازنة بين باقي المطالب ويوزع ما

لديه من K على جُمليتها لتحقيق أقصى إشباع. وجدير بالذكر أن مثل هذه التصرفات تحدث عند أغلب الناس بتلقائية شبه غريزية وبدون تفكير يذكر أو حسابات رياضية ، أو تصور أرقام كالموضحة آنفا.

وكمثال مادي هب أن شخصا (X) يملك 10 وحدات نقدية ، فتجده يشتري - مثلا - خبزا ، جبنا ، وبيضا ويرتقلا ويقي أجر المواصلات التي توصله لبيته. وتجده شخصا آخر (Y) يتصرف في نفس المبلغ بشراء سجائر وخبز وجبن ويعود لبيته ماشيا يدخن السجائر. كل من الشخصين تصرف بنوعية عقله وبدون تفكير يذكر وقتما تصرف ، ولكن هذه التصرفات في الحقيقة وراءها نوع من التركيب العقلي المحاط بالرغبات المطلوبة. ونفس الشيء يحدث في التعامل مع الأمور اللامادية أو المزدوجة.

وبغض النظر عن أى الشخصين أصوب أو أعقل ، فحين نناقش أو نسأل الكثيرين : لماذا كان اختيارك (أو تتصرف) هكذا؟ تجد أجوبة مثل: مزاجى ، إنتى أحب ذلك ، لأن ذلك أفضل ، الناس تفعل ذلك ، ماذا تريدنى أن أفعل غير ذلك!! مثل هذه الإجابات تدل فى الغالب على غريزية وتلقائية التصرف ، وعلى روح دفاعية تبريرية ، قبل أن تدل على تفكير جاد أو موضوعى. وكمثال آخر ، لم تفلح تحذيرات الأطباء - من مضار التدخين - فى أن يُعدل الناس سلوكهم ، ورغم كل التحذيرات المكتوبة على كل علبة سجائر ، فعدد

من يدخنون وقت تأليف هذا الكتاب يقدر بألف مليون أو يزيدون ، ولم يتوقف تساقطهم - من مختلف الأعمار - فى المستشفيات وفى غيرها.

هذه التصرفات موجودة وغالبة فى الأمور المادية والمعنوية ، بينما العقل فى استرخائه المعتاد قلما يستدعى إلا حين تتأزم الأمور ، وهيهات أن يستطيع استجماع طاقاته حينئذ. فالتشغيل الجيد للعقل يحتاج لمعلومات كان يجب الحصول عليها من قبل (مسبقا) ، ويحتاج إلى تدريب طويل على كيفية تشغيل هذه المعلومات فكريا ليتبين الطريق الأرجح ، وكل ذلك لا يمكن الوصول إليه فجأة حين يستيقظ العقل إثر صدمة أو نتيجة حدث مفاجئ أو مطلب عاجل ، بل إن المفاجآت تصيب العقل بما يشبه الشلل المؤقت.

ترتيب المعلومات بالعقل

مصطلح الترتيب - كمعظم المصطلحات - هو صناعة بشرية ، نتجت عن الحاجة إلى وجود تسلسل واضح يُسهل التعامل مع الأشياء أو مع قيم الأشياء ، أو تواريتها أو خصائصها... إلخ. وفى مجال الحاسب الآلى فقد ساهمت سهولة الترتيب فى تيسير مسألة الترتيب المبدئى (الترقيم) لحين الترتيب النوعى حسب الطلب أو التصنيف. أما فى منظومة العقل البشرى فلا يلزم ترقيم ولا تصنيف ، ويبدو أن للترتيب معانى وأساليب أخرى غير التى اخترعناها ، ولكنه من

المؤكد أن معلومات العقل لا تتكافأ أهميتها في نظر الإنسان (في النفس) ، وإنما تفوق قيمة بعضها قيمة البعض الآخر.

وكما أشرنا سلفاً ، فكل عقل يتعامل مع المعلومات بقدر علمه وخبراته وبأسلوبه الخاص الذي قد يكون صواباً ، وفي أغلب الحالات يحتاج إلى تصويب . ودرجة العلم ترتبط بمدى إدراك الحقائق ، فالحقائق هي التي تنير المسار وتمكن من ضبط الحركة وحسن الأداء . أما الزيف والأباطيل فتخيم بالظلام المفضى إلى التخبط والهلاك ، والعياذ بالله . وتشترك الأباطيل مع الحقائق في أن كليهما معلومات ؛ أى مكونة من علامات ورموز وكلمات ، إلا أن الأباطيل معلومات زائفة كاذبة ومسمومة ومهزوزة ولا يقبلها العقل الفطري إلا بحيل التزيين والإغراء والمكر والخديعة والإلحاح... إلخ. أما الحقائق فيقبلها العقل المحايد بسهولة فطرية مريحة ، لذلك فالنشاط العقلي يمثل خطورة شديدة على المغالطات والمعلومات المزيفة والأفكار التافهة.

والعقل لا يتسع لتخزين كل المعلومات التي تصل إليه ؛ لأنها غير محدودة وهو محدود. إذن نسبة كبيرة من المعلومات التي تستشعرها حواس الإنسان ومداركه - وهى بالملايين - يتصرف العقل فيها بالإهمال أو المطاردة ويمكن أن نسميها إخراجات ، أو مهملات فى ميزان عقل ما ، وذلك بغض النظر عن صحتها من عدمه. أمثلة ذلك درجة الحرارة فى ضحى بعض أيام العام الماضى ، عدد الطيور التى كانت تقف على أحد الأشجار ، عدد أكواب الماء التى شربها

الإنسان يوم الجمعة قبل الماضي ، عدد المرات التي لبس فيها ثوبا جديدا ، عدد ملاعق الأرز التي تناولها في الغذاء ، عدد درجات سلم عمارة أحد الأقارب ، عدد أزرار القميص ... إلخ. كل هذه المعلومات يمكن أن تحتزن في ذاكرة عقل من يحرص عليها ، أو في العقل الذي فيه متسع لذلك ، ولكن نظرا لتضاؤل فائدتها أو أثرها أو قيمتها فإنها في الغالب تهمل ولا يحتفظ العقل بها ، رغم أنها كانت متاحة مجانا وبسهولة في وقتها ، إلا أنها متلاشية القيمة والفائدة. وجدير بالذكر أن أهمية المعلومة نسبية (معنوية) وتختلف من شخص إلى آخر ، وهذا سبب جوهرى في اختلاف العقول والرؤى ، كما أوضحنا قبلا.

وكثرة التعامل مع المعلومة ، استخداما أو تكرارا أو انتفاعا أو احتياجا أو إلحاحا أو تذكيرا ، إلى آخر هذه المؤثرات ، كل ذلك وأمثاله يفسح للمعلومة حيزا خاصا في ذاكرة العقل ووجودا في خلاياه العصبية ، أو يزيد من تأثيرها في الوجدان ، أو يكسبها أولوية أو حضورا أو نشاطا في التأثير على الفكر والسلوك ، ويكون ذلك على حساب المعلومات الأخرى ، خصوصا في حالة كثرتها. ولا نجزم أى التعبيرات السابقة أدق بالنسبة لحقيقة العقل ، لذلك سنحاول أن نتجاوز تلك العقبة ونستخدم مصطلح الترتيب ، فالمعلومة ذات التأثير الأشد - فى السلوك - نعتبرها (بجازا) ذات ترتيب متقدم على غيرها. ولنفرض أن شخصين يعرفان (أو لديهما) نفس مجموعة المعلومات التالية ولكن بترتيبين مختلفين - على سبيل المثال - كالآلى:

الترتيب لدى الشخص الثانى

الترتيب لدى الشخص الأول

زيادة المرتبات الشهر القادم.
مباراة اليوم تحدد مصير الفريق
ارتفعت أسعار الكهرباء.
.....
النظافة تقى من بعض الأمراض.
.....
النظافة تقى من بعض الأمراض.
.....
النظافة من الإيمان.
كل نفس ذائقة الموت.

كل نفس ذائقة الموت.
النظافة من الإيمان.
.....
النظافة تقى من بعض الأمراض.
ارتفعت أسعار الكهرباء.
.....
مباراة اليوم تحدد مصير الفريق.
زيادة المرتبات الشهر القادم.

هذان الترتيبان يدلان على اختلاف العقليين وبالتالي الشخصين ؛ نتيجة التربية والتراكمات والمعاشات والمخاطبات والخبرات ... إلخ. فكل منهما يتصرف ويتحرك بعقله وبمحصن ما زرع فيه وصاحبه لا يدري. والسلامة يحكمها مدى قرب العقل من الحقائق وبعده عن الأوهام والأباطيل. ومجموعتى المعلومات الموضحة فى الجدول (الافتراضى) السابق قد تتطابق كمفردات لكن نوعية البناء المكون منها توقف على فهم البناء وأهدافه وغاياته ورؤيته وتصوراتهِ ، فمجرد معرفة المعلومة لا يفيد ، لكن الفائدة تنتج بالتوظيف.

نفس مجموعة المعلومات شبه مؤكدة ، لكن اختلاف الترتيب يدل على مدى الإحساس بأهمية كل منها وحضورها في الذهن (أو الذاكرة العاملة) ، ومدى تأثير المعلومة في الفكر ، ومدى الاستعداد لبدء المناقشة حول المعلومة والاستجابة لما يتعلق بها. فكثيرا ما يحدث عندما نذكر شخصا بمعلومة صحيحة ، فيرد قائلا: إننى أعرف ذلك ، ويجاون تخطيها والحديث عن غيرها. ونحن نصدقه ونثق أن المعلومة بلغتة وهو فى وعيه ، ولكن لماذا لا يعمل بموجبها؟! أو لماذا يهملها ولا تؤثر فى سلوكه؟ تلك هى القضية ، ما موقع هذه المعلومة فى العقل ، وما ترتيبها؟ بالتأكيد ترتيب غير متقدم. وهذه غفلة لا يشعر بها صاحبها إن كانت حقيقة المعلومة خطيرة. إذن المطلوب حسن ترتيب المعلومات (والقضايا) حسب خطورتها الحقيقية وليس فقط معرفتها ، أو الحكم على قيستها وفقا للهوى.

الشخصان - المشار إلى نوعيتهما أنفا - متفقان فى مفردات المعرفة (المعلومات المذكورة) ومختلفان فى أوزانها أو قيمها والاهتمام بها ؛ ولهذا السبب يصعب أن يتوافقا وهما على هذه الحال ، فقبل أن يتوافقا يلزم إعادة ترتيب المعلومات لدى أحدهما أو كليهما. يستطيع الشخص الثانى أن يرفع ترتيب أهمية المباراة - مثلا - فى عقل ووجدان الشخص الأول ، من الموضع قبل الأخير إلى ترتيب أعلى ، وذلك بأن يقدم له - بلباقة - تذكرة مجانية لمشاهدة المباراة ، ويصحبه بسيارته ، وبعد ذلك يدعوه للحفل الذى سيقام بمناسبة فوز الفريق ... وهكذا يجد الشخص الأول نفسه معايشا للجو ومهتما بالأمر وحتى يجداول المباريات

القادمة ؛ لأن عقله تزود بمعلومات أكثر عن المباريات فتولدت ألفة ومبادئ انفعالات ، ولأن المتعة - رغم تفاهتها - قرية المنال ومقدمات الإغراء ملموسة وعاجلة. وبعد ذلك فقد يقدم هذا الشخص مشاهدة المباريات على تشييع الجناز أو تقديم واجب العزاء ، خصوصا إن كان الميت غير قريب ، وبذلك تكون المعلومة التي كانت قيمتها في الترتيب شبه الأخير تقدمت على المعلومة التي كانت في المقام الأول.

أما تحقيق العكس ، أى محاولة الشخص الأول أن يرفع أهمية قضية (معلومة) الموت وما بعده فى عقل الشخص الثانى ، فهذا أصعب لأن العائد ليس عاجلا ولا متجسدا ، ومقدمات الإغراء غير ملموسة. وهذه معلومة تتعلق بأمر مخيف أو غير محبوب - فى الغالب - أمر ينتقل النفس من المشهود المؤلف إلى المجهول الذى تخافه النفس. إذن فالمسألة تحتاج إلى جهد إقناع أعمق رغم أنها تتعلق بأشد الحقائق خطورة وتأكيذا فى الوجود ، لكنها خاملة فى الذهن بمحاولات التغطية عليها وتجاهلها حتى يُظلم العقل عليها ، ونسيانها مفضل عند الكثيرين ، لذلك فهى محجوبة بأغشية ولفائف الغفلة ، إلى أن تحدث صدمة أو يجد الجد فينجلى الموقف ويظهر الحجم الهائل للحقيقة التى غرق الناس فى بحر تناسيها وتاهوا فى دروب وحيل مراوغتها. إن القيمة الحقيقية لكل زينة الدنيا ومغرياتها لا تنكشف إلا فى لحظات الاحتضار ، وعندئذ لاتكون هناك فرصة لإعادة الترتيب أو حتى مقدرة على تشغيل العقل ؛ لأن الدم الواصل للمخ

عندئذ يكون متجاوزا مواصفاته ومعدلاته بالزيادة أو بالنقص ، والخلايا العصبية
أنهكتها شدة الآلام ودخلت مرحلة الارتباك والهلوسة والسكرات!!!

وبينما يلتقط المؤلف أنفاسه يترك الواقع ينطق ، والقلم ينقل بعضا مما كتبه
الأستاذ/ محمود مراد ، بصحيفة الأهرام يوم 12-12-1996 ، فى وداع
الفنان فلان: "رحل فلان قبل أن نلتقى كما وعدته ... مضى إلى رحلته الأخيرة
... فاجأه الموعد. فى أمسية الجمعة ذهبت لزيارته فى غرفة العناية المركزة
بالمستشفى ، وفى الطريق إليها استقبلتني باقات الورد والصمت والخوف.
وجلست إلى جواره ، وأنا أكتم مشاعرى وأحبس دموعى ... فلم يكن فلان
هو فلان ... كان شبعا هزيلا .. رأيت على وجهه الموت وشممت رائحته.
ترى هل هكذا تكون النهاية؟! إننى أكاد أقول إن المرض ليس سببه فى معظم
الأحيان عضويا ، وإنما هو ضغط نفسية تهدد الصحة فتتخر العظام ، أو تذبح
المخ أو توقف القلب."

والعقل الواعى المستنير - بهدى الله - يستطيع الآن أن يتصور شيئا قريبا من
ذلك ويستعد له مبكرا ، فيصحح الترتيب ويحسن وزن الأمور ويجهز مقدمات
حسن الخاتمة ، ويحرص على تنمية الرصيد الأبيض فى سجلات الحفظة الكاتبين
، ويستحى منهم ومن يعلم أدق مما يكتبون.

وفى ضوء التحليل السابق يمكن تصور كيف تحدث ديناميكا تشكيل العقل بالمؤثرات الخارجية ، ونشاط أو تنشيط المعلومات واستكمال الناقص الضرورى منها ، رغم أن العقل باطن (خفى). وكثيرا ما يكون الترتيب مصنوعا خارج عقل الإنسان ، أى يقدم للإنسان جاهزا أو موروثا كالدين والعقيدة ، أو بالتلقى من القادة والأئمة فيسير الناس مع القافلة أو التيار ، ورغم اهتمام كل شخص بنفسه إلا أن وجهة القافلة هى التى تكون غالبية على الوعى، ويستثنى من ذلك من يحاول التحرر بفكره وعقله.

تنشيط التفكير

النشاط الواعى شرط ضرورى لحسن التعامل مع الواقع وتحقيق التقدم والرقى. والوعى يحتاج لعلم زكى وفهم صحيح ، ولا يتوفر ذلك بدون بذل جهد ذهنى بنشاط هادف. والقضية تبدو وكأنها من العقل وإليه ؛ فهو المحفز بالعاطفة وهو المستفيد وهو المراقب لكل النشاطات البشرية. وأرقى أنشطة العقل هى التفكير الحسن ، وحسن التفكير يحتاج لوقت ولصفاء نفس ، والتخفف من الأثقال والحجب المادية. ويلاحظ من التجارب والخبرات العملية ، أنه حين يفرض على الإنسان ملازمة الفراش لمدة معينة ، حيث التقييد الإيجابى للنشاطات المادية والأهواء ، حينئذ تتوفر لديه الفرصة التى قد تكون كافية لمراجعة النفس والتقليب فى محتويات العقل ، ونتيجة لذلك قد يهتدى الإنسان لتصور أصح وفكر مختلف عما كان لديه (أو تعودته) قبل التجربة ، وتتكشف

لديه حقائق كانت غائبة عن فكره رغم وجودها من حوله ، فينتج عن ذلك سلوك جديد وأحيانا يحدث تغير في الشخصية ، وفي بعض الأحيان يعبر عن ذلك على أنه درجة من درجات الشفافية. وتبلغ الشفافية مداها حين يوقن العقل بوجوده على حافة الدنيا والمغادرة الإجبارية الوشيكة لكل العلائق المادية ، عندئذ تكشف الحجب ، لكن فرصة المراجعة هذه لا تيسر إلا لمن يمن الله عليه بالهداية ، فنرى من يُخرج من الدنيا وهو يجرى ويلهث وراءها ، ونسمع عن من تخرج روحه وهو يرتكب المعصية ، ومن يتعجل الذهاب للجحيم فينتحر!

التفكير العميق يحتاج لفترة حضانة ورعاية حانية ؛ لكي ينضج وهو يستقبل المحسسات الفكرية. ومن يسترجع تاريخ نشاطاته الفكرية يلاحظ أن العواطف الحزنة والهموم المتكاثرة تثبط النشاط والهمم عموما والتفكير خصوصا ، ويلاحظ ذلك في بقاء الخطى والحركات وشروء الذهن في أجواء الموت وأثناء الجنائز. ويصدق ذلك ما جاء في الحديث الشريف المتفق عليه عن أنس ، رضى الله عنه: " اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل ... ". ويتعذر التفكير الجيد في الظروف الغير طبيعية ، كحالات الخوف والقلق وعدم توفر الضروريات الأساسية.

وبالعكس فى أجواء الأفراح تجدد الحركات أشبه بالجرى والقفز ويلاحظ حضور
الذهن ودقة التجهيز والتخطيط والحصر والمراقبة ، وذلك نتيجة نشاط العقل
وحيويته.

ومن جرب التفكير يلحظ أن تغيير الخطى (الرُّتْم) يوقظ الذهن أو يساعد على
تصفيته من بعض شواغله الحاضرة ، وهذا التغيير يكون إما بالإبطاء لدرجة
الاسترخاء ، وإما بالقيام والسير بخطى بطيئة ، أو بتغيير الوضع أو المكان.
ويلاحظ فى هذا النوع من التنشيط المستدعى أن الإرادة تحدّث الخيال الفكرى
وتنظمه فى اتجاهات معينة ، أما إذا تركنا الذهن طليقا فإن الخيالات والخواطر
تصير فوضوية متلاشية الفائدة ، وأحيانا شيطانية. ولذلك فالمطلوب إدارة واعية
؛ لتوجه التفكير بالإرادة.

الخدمة العقلية

إن أجل خدمة تؤديها لغيرك هى الخدمة العقلية ، وهى لا تكلفك الكثير ولكن
أجرها عند الله عظيم. وهل التعليم الزكى والثقيف النظيف والإعلام النزيه
والتبليغ الأمين والتربية الحسنة والتأديب والنصيحة الخالصة... إلخ إلا خدمات
جليلة تنير العقول.

كل رسالات الهداية جاءت بهذه النوعية من الخدمة ؛ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بنص القرآن الكريم فى العديد من المواضع. وفى الأحاديث الصحيحة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تأكيدات عديدة على وجوب النصيحة - وهى خدمة عقلية بحتة وسامية - ومثال ذلك ما روى عن طريق تميم الدارى ، وابن عباس ، وأبى هريرة - رضوان الله عليهم - فى سبعة مصادر من كتب الحديث : " إن الدين النصيحة ، لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" .

لقد تعددت وتنوعت الخدمات المادية فى هذا العصر وبلغت من الإتقان ما بلغت ؛ لأنها تحقق الثروات المادية للقائمين عليها ، ولا بأس ، ولكن متى تُقدم الخدمات العقلية النظيفة لوجه الله وطلب رضاه!

الله الله فى عقولكم ، وفى عقول الأبرياء إخوانكم وأخواتكم فى الإنسانية ، من صلب أبينا آدم ورحم أمنا وحواء ، سلام الله عليهما . وسبحان الله العظيم القائل: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الآيات 28 و 29 - سورة التكوير.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾